

علم الانسان

(٤) النظام الاجتماعي

إذا شئت درس حال أمة من الأمم للوقوف على دخيلة أمرها وحقيقة مركزها الاجتماعي ووجب من مبتدئ الأمر أن يتفهم الألفاظ بنظامها الاجتماعي في جميع صور وأشكاله إذ يتحيل العلم بأخلاق أمة أو مواطنها قبل العلم بطوايرها . فنبيل الباحث والحالة هذه هو السعي إلى معرفة الأخلاق الباطنة بطريق النظامات الظاهرة

رب سائل يسأل كيف وجدت صور النظام الاجتماعي . هل اخترعها احد . وهل تطوي فكرة النظام على منظم سابق له أم تنمو تلك الصور نمو البلورات بالاضافة اليها من الخارج . والرأي أن الضرورة الطبيعية والحرية العقلية عاملان متداخلان في حياتنا وإن لكل منها بدءاً في ابلاغنا هذه النتيجة أو تلك . ونسب الضرورة الطبيعية قوة الظروف القاهرة والحرية العقلية قوة الإرادة أو القصد العاقل

قال الباحثون في الحياة الانسانية ان العوامل الرئيسة التي تسلط عليها وتكيفها هي التربية والنظام الاجتماعي وعدد الشعب والطعام والاختراع وكل منها ممتد على ما يليه . وترى في هذه السلسلة أن طرفيها أي التربية والاختراع عاملان متوازنان والحلقات التي بينها اثنتان منها ماديتان وهما العدد والطعام والثالثة أي النظام الاجتماعي بين بين . والذين جعلوا الاختراع الركن الأكبر في هذه السلسلة وارتبوا نظام المعيشة الانسانية مخالفوا مذهب القائلين بأن النشوء الانساني عمل طبيعي صرف . وعندما ان الحياة الانسانية اصطناعية وبعبارة اخرى ان يد الصناعة ظاهرة كل الظهور فيها وان اعظم ما يميز الانسان عن غيره من الحيوانات هو تأثيره بالصناعة

لا يخفى ان اختراع الآلات في اواسط القرن الثامن عشر انفضى إلى ثورة صناعية لا يزال اثرها في السياسة والاجتماع باقياً إلى يومنا هذا وهو كل يوم على ازدياد . والحق يقال ان التاريخ الانساني ليس الأ تاريخ الاختراعات العظيمة . ولكن طبيعة البلاد تساعد على تعيين نوع الطعام ومقداره بوجه الاحمال حتى انه لا يمكن انبات التمحج مثلاً في البلاد المتقدمة معها اتسمت حيلة الانسان في الزراعة فلا يقصدها الا طلباً للصيد

ولنفرض ان مخترعات أمة من الأمم كافية لاخراج مقدار معلوم من الطعام وحينئذ

يمكن الانسان على ما قال ماثوس تارون است بتواند والتج من النفس ما يشكاف مع ذلك المقدر وبصارة اخرى يمكنه تكثير والدو الى حد ما يكون بينه وبين الطعام نسبة ثابتة فلما فيها مرة من النظام الاجتماعي يعتمد على العدد فننظر الآن في وجه ذلك الاعتماد . فقد حاول بعض العلماء ان يبين انه يمكن التوفيق بين مقدار معلوم من السكان وبين كل درجة من درجات ارتقائهم في السلم الانساني حتى يناموا ارقى درجة من الحضارة . مثال ذلك ان بعض القبائل الواطئة في سلم الارتفاع كالاقوام . وثلثة من جماعات صغيرة جداً كل منها تشمل على عشرة اشخاص الى اربعين . والجماعات التي ارقى منها قليلاً كالاستراليين الاصليين مؤلفون من قبائل في كل منها ٥٠ شخصاً الى ٢٠٠ . ومعظم قبائل اميركا الشمالية وهم ارقى من الاستراليين مؤلفون من جماعات عدد كل منها ١٠٠ الى ٥٠٠ . وقد سمي هذه القبائل كلها مشوشة واهم خواصها ومميزاتها من الجهة الاقتصادية انها قبائل رحل تعيش بالصيد والقتص

واستطرد في قسمه هذه بقسم الامم التي هي ارقى قليلاً من المتوحشة الى ثلاثة اقسام سماها كلها بربارة . اما القسم الاول فيشمل القبائل التي تستقر في مكان من الارض لاحتراف الزراعة او ترحل من مكان الى مكان اتجاءاً للكلاب كقبائل افنود الاميركيين المسماة اريكويز وقبائل الموري في زيلندا الجديدة . والقسم الثاني من ١٠٠ الى ٥٠٠ . والثاني يشمل القبائل التي طابعت النظام كقبائل انداهومي والاشتي في غرب افريقية . وقد يبلغ عدد القبيلة منها اربعة الف . والثالث القبائل التي هي ارفع نظاماً كالجبشان واهل مدغشكر وعدد كل منهم نحو نصف مليون

هذه هي زبدة تقسيمه . وقال اجمالاً ان اخلاص النظام الاجتماعي وتلازم اجزائه في اوائل عهد الارتفاع الانساني تباين لحجم الجماعة . ولما كان حجمها تابعاً لطريق معيشتها الاقتصادية فلا بد ان اذا سميت جماعة الطعام اتم الجماعة التي يتوقف مقدارها على مقدار ما تجده من الطعام

وهناك حالة اولية غير الطعام تترتب في النوع الانساني تأثراً جوهرياً وهي الميل الى الزواج واخلاف النسل . فبذلك يكون نظام الاجتماع ذا وجهين اواحد وهو الامم وجه طلب الطعام . والثاني وجه طلب الزواج . فقد كان اناس في حال فطرتهم الاولى يطلبون الصيد جماعات كسائر الحيوانات الاجتماعية ويعيشون جماعات ايضاً ويتحصر زواجهم فيهم ولكن لما جعل كل بيت منهم يتزوج من غيرويات امر التزاوج اعظم شأناً من امر الطعام لان

الحصول على الطعام سهل تشطيبة القبيلة نفسها في حين ان تزوج غريبة انما هو من المسائل الصعبة التي يقتضي حلها اخذاً وعطاءً من الطرفين

وعلى ذكر نظام الزيجة الخارجية نقول ان العلماء مختلفون في هل كان الناس في حال فطرتهم الاولى يتزوجون اقربهم الاقربين ام يتزوجون الاباعد عنهم . وبعبارة اخرى اية العادتين كانت السابقة عادة التزوج الخارجي ام عادة التزوج الداخلي . فقد وجد بعض الباحثين في عادات قبيلة الفيما من سكان غابات سيلان ان فئة منها تتزوج من الفئات الاخرى بمحكم عادة قديمة وان فئة اخرى لا تتزوج من الغير . ومن رأهم ان الفئة التي يتزوج رجالها ونسائها كانت فيما مضى تتزوج من الخارج ثم طرأ عليها ما حال دون ذلك ففرقت بين شرين فاما ان تتزوج من الداخل واما ان تمتنع عن التزوج بشانها خارت الاول وهو الامر . ويقول البعض انها عادة الانسان الاول ولكن ليس ثمة دليل يبين على صحة هذا القول

ومن اكبر العوامل تأثيراً في النظام الاجتماعي وتكيفه مبدأ ملكية الافراد وخصوصاً الماكية العقارية . فان قسمة الناس الى غني وفقير هي اعظم ما يميز طبقاتهم المختلفة بعضها عن بعض . وقد يقسمون في بعض البلاد الى احرار وعبيد او الى اصحاب حرف وشريفة وحرف دنيئة ولكن اساس هذه التقاسم كلها ملكية الفرد كما تقدم اذ قد جرث العادة بان يسمى من الحرف شريفاً ما عاد على صاحبه يبيع حسن وما قل ربيعاً فهو الخسيس الذي قلنا ان نظام الاجتماع يتوقف على المدد وهذا على المهارة التي تبدل في طلب الطعام . ولكن هذا القول يصح الى حد محدود اذ لا شاحة في ان تركيب الجمعية البشرية وتنظيمها يتوقفان على الفهم والادراك . فانه ان كان نظام الاجتماع نتيجة طبيعية لنمو السكان فهو كذلك من صنعة العقل الانساني الذي يتخذ غراره لاختراع طرق واماليب شتى في جمع الناس جماعات كبيرة للتعاون على العمل معاً

لذلك اذا نظرنا الى الجمعية الانسانية نظراً خارجياً صرفاً خيل اليها انها لا تخرج عن كونها آلة سخرة انقضاء غاية اي انها نتيجة الادراك لا الادراك تامة . ولكننا سنرى فيما يلي ان هذه الآلة الاجتماعية تتحرك من نفسها رمق اطلاقاً على تركيبها الداخلي والمنا بقوتها الحركة لها اضطررها اذ ذاك الى المدول عن رأينا الاول فيها وحكنا بانها ليست مجرد آلة صماء عمياء بل جسم حي . بل اكثر من ذلك - اي انها مجموعة نفوس وعقول مستقلة ولكنها متداخلة بعضها في بعض تسمى معاً في طلب استقلال الفرد والحرية